مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ISSN 2661-7307
المجلد 08 ـ العدد 02 ـ السنة 2026 ص 17 – 33 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730

المستشرقون ودراسة نظام الحسبة عند المسلمين
كتاب نهاية الرتبة للشيزري نموذجا

Orientalist scholarship and the study of the Hisba System in Islamic societies: Nihayat al Rutba by al –shayzari as a case study

د. بوها محمد عبد الله سيدي *

المعهد العالي للبحوث والدراسات الإسلامية -موريتانيا- *lmaraghisi07@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 2026/05/07 تاريخ القبول: 2026/06/28 تاريخ: النشر: 25/ 07/ 2026

الملخص:

أولى المستشرقون التراث الاسلامي عناية فاءقة حيث ترجموا وحققوا واحتفظوا بمخطوطات عديدة؛ واكتشفوا مصدرا جديدا من مصادر التاريخ الاسلامي هو فقه النوازل هذا فضلا عن وضع بعض الأفكار الخادمة للغة العربية كفكرة المعجم التاريخي للغة العربية وغيرها...

لكن ما يهمنا هنا في المقال هو عنايتهم بكتب التراث و بالأخص عناية بكتب الحسبة؛ والدراسات التي أعدت في هذا الصدد؛ مستأنسين بموذج هو كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري؛ فكيف اكتشف المستشرقون بهذا الكتاب وماهي خلفيات اعتناءهم بهذا الكتاب؟

الكلمات المفتاحية: المستشرقون، نظام الحسبة عند المسلمين

Abstract:

Orientalists showed exceptional interest in Islamic heritage: they translated, edited, and preserved numerous manuscripts. They also uncovered a new source for Islamic history—namely, fiqh al-nawāzil (jurisprudence of new or exceptional cases). In addition, they proposed ideas that served the Arabic language, such as the concept of a historical dictionary of Arabic, among others. However, what concerns us in this article is their attention to heritage books, especially works on ḥisbah (market regulation and public morality), as well as the studies produced in this field. As an example, it draws on the book Nihāyat al-Rutbah fī Ṭalab al-Ḥisbah by al-Shayzarī. How did Orientalists come to discover this book, and what were the motives behind their interest in it?

Keywords: *Orientalist scholarship and the study of the Hisba System in Islamic societies*

* المؤلف المرسل

مقدمة:

لقد اهتمت الدراسات الاستشراقية بجميع الجوانب الحضارية للعالم الإسلامي (السياسة و الثقافية والدينية والاقتصادية...)، وقد ظهر هذا الاهتمام بشكل عام عند جميع المدارس الاستشراقية، حيث كان لكل مدرسة توجهها الذي يميزها، فالمدرسة الاستشراقية الفرنسية اهتمت بالجوانب اللغوية والأدبية، بشكل جعل منها مرجعا للمدارس الاستشراقية الأخرى، أما المدرسة الألمانية فقد تخصصت في علم العقائد الإسلامية، وجاءت المدرسة الروسية لتركز على التراث، ونحت المدارس الاستشراقية الأخرى منحى هذه المدارس الثلاث.

ومن ذلك عنايتهم بكتب نظام الحسبة، الذي هو نظام يشمل مراقبة مصالح الناس العامة، بدء من مراقبة الأخلاق العامة إلى مراقبة الأسواق وضبطها، وغيرها من مصالح الناس. و قد ظهرت عنايتهم جليا من خلال جمع بعض كتب الحسبة و القيام بدراسات حولها، والاستفادة من نقل آلية الحسبة كنظام للضبط والرقابة إلى الحضارة الغربية، والاستفادة من المادة الأنتروبولوجية الثرية التي يجدونها في كتبها، وهو ما سنقف معه عند تتبعنا لكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري.

وتنقسم الكتابات التراثية عند المسلمين عن ظاهرة الحسبة إلى اتجاهين اثنين، تعرض الأول منها إلى الناحية الفقهية وتبيان مشروعيتها وتفصيل حدودها، بينما اهتم الاتجاه الثاني بالناحية الوظيفية، موضحا وظيفة المحتسب في ضبط أحوال الشارع والأسواق والعناية بالمساجد وغير ذلك من المرافق العمومية[1].

فمن الناحية الفقهية أول من كتب في الحسبة وناقشها فقهيا كان الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ) في كتابه إحياء علوم الدين الذي سيطر على الحياة الفكرية للمسلمين في القرون الموالية، ثم جاء الإمام ابن تيمية في القرن الثامن الهجري. أما من الناحية الوظيفية فنجد الإمام الماوردي (ت 450هـ) - وهو أول من كتب عن الحسبة عموما- في كتابه الأحكام السلطانية المصنف كأقدم كتاب في السياسة الشرعية، حيث تناول فيه تنظيم أجهزة الدولة و أدوار جهاز الحسبة ووظائفه، وثم كتب أبو يعلى الفراء (ت 458هـ) في كتابه الذي حمل نفس الاسم وعلى منواله نسج القلقشندي (ت821هـ) في صبح الأعشى[2].

وما يهمنا في هذا المقال هو كيف اهتم المستشرقون بهذا الصنف من التآليف و تحديدا كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري؟ متبعين في ذلك المزاوجة بين المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي، لرصد العناية التي أعطيت لهذا الكتاب وكيف تم حفظه بعد أن استقرت نسخة منه في يد المستشرق الألماني (فالتر برناوي أمين المكتبة الإمبرطورية بفينا).

وقد جائت خطة المقال مقسمة على المطالب التالية:

أولا: الاستشراق ، التعريف والنشأة

1- تعريف الاستشراق

2- نشأة الاستشراق

ثانيا: نظام الحسبة

أ- الحسبة

ب- الحسبة كوظيفة:

ثالثا: الاستشراق و العناية بكتاب نهاية الرتبة، ثم خاتمة .

أولا: الاستشراق ، المفهوم والنشأة:

الاستشراف حركة علمية قديمة يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة، ولا تزال قائمة حتى اليوم. وهي حركة واسعة النطاق، متعددة الجوانب، متشابكة الأطراف. وقد تناول المستشرقون تراث العالم الشرقي بصفة عامة، والتراث العربي الإسلامي بصفة خاصة[3].

وتتعدد أهداف الاستشراق سواء كانت أطماعا اقتصادية أو سياسية استعمارية أو دينية تبشيرية، غير أنه مع ما سبق لا يخفى الدور الإيجابي الذي لعبه المستشرقون في حفظ بعض مخطوطات التراث العربي والإسلامي من الضياع و وبذلوا جهودا في تصنيفها وترتيبها[4].

وقد نتج عن اهتمام المستشرقين جملة من النتائج ذلك"إن الزحف الاستشراقي على الثقافة العربية والإسلامية ومؤسساتها العليا ربط جوانب من هذه الثقافة بأفكار وقيم دخيلة تتبعها مفكرون مسلمون، كما كان تغلغل المستشرقين في المؤسسات العربية الإسلامية العلمية والتعليمية ونفوذ سلطانهم الفكري عليها وعلى أهلها قد حمل آثار سلبية وأكثر خطورة وتدميرا للقيم والمبادئ والأصالة التي أقيمت عليها هذه المؤسسات"[5].

1- تعريف الاستشراق:

الاستشراق لغة: كلمة "الاستشراق: مشتقة من مادة "شرق" يقال شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت[6].

المشرقان :المغرب المشرق على التغليب[7].

1-1- الاستشراق اصطلاحا:

- التعريف الأول: الاستشراق هو علم الشرق أو العالم الشرقي[8].

- التعريف الثاني: "استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم تقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة "[9].

التعريف الثالث: حسب الألماني (رودي بارت Rudi Paret) الاستشراق هو مشتق من كلمة شرق ولذلك يعني علم الشرق أو علم العالم الشرقي[10]. لكن هذا الشرق سيتغير حسب الزمان و المكان، فعندما كان البحر المتوسط في العصور الوسطى مركز العالم، كان يحدد من خلاله "الشرق" و "الغرب" وبعد اتساع العالم واكتشاف الأمريكيتين، كان لابد من وضع محددات لمفهوم الشرق.

التعريف الرابع: إن"المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي والإسلامي، عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين"[11].

التعريف الخامس والاستشراق:هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة "مستشرق"، بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه، ووسطه وأدناه، في لغاته وآدبه وحضاراته وأديانه[12].

التعريف السادس: لـ"أحمد حسن الزيات" يقول فيه: "يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرة لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منابر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقا في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح"[13].

التعريف السابع: وهو لمحمد عبد الغني حسن يقول فيه: "الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر ذلك في تطور البناء الحضاري للعالم كله" [14].

أما مفهوم (الإستشراق Orientalisme) فإنه لم يظهر في أوربا إلا في نهاية القرن الثامن عشر, حيث ظهر أولا في أنجلترا عام 1779م، ثم في فرنسا في عام 1799م، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام1838م [15]. و بعد صدور كتاب الاستشراق الإدوارد سعيد، وبعد أن تعدد الدراسات التي أجريت على الاستشراق والتي تربطه – في مجملها- بشكل قوي بالظاهرة الاستعمارية، أصبحت الأوساط الغربية تتحفظ على استخدام مصطلح الاستشراق، لما يحمله من شحنة دلالية اكتسبها عبر تاريخه المرتبط بالمؤسسات الغربية وفي مقدمتها القوة الاستعمارية.

بعد أن رأينا هذه التعريفات نستطيع أن نجملها بالقول إن الاستشراق هو الوجه الفكري للصراع الغربي مع الحضارة الإسلامية، الذي يفرض معرفة الشرق بمختلف جوانبه، واليوم وبعد أن أصبحت جل معارف الشرق مترجمة إلى اللغات الغربية وأصبحت جميع مناطقه معلومة المكان على الشبكة العنكبوتية، بمدنها وأريافها بهضابها وسهولها وأكثر من ذلك في قومياتها وتعداد سكانها ومواردها، بعد كل هذا لن يتوقف الإستشراقية، بل سيأخذ أشكالا جديدة لخدمة المؤسسات الغربية (القوى الاستعمارية).

وإذا كانت بعض الدول الغربية أصبحت تتحفظ على مصطلح الإستشراق الذي أصبح يوحى بالاستعمار، فإن ذلك يعني أن الحركة الإستشراقية مطالبة بتجديد وسائلها وأدواتها وطرقها في التعاطي مع العالم الإسلامي، أخذا بأسباب الاستمرار وإبقاء سيطرة العالم الغربي، وعدم التمكين للحضارة الإسلامية.

فيجب أن لا نتصور الاستشراق بالأساليب التي عهدناها؛ فهو اليوم يأخذ أشكالا مغايرة، في دراسته لتطورات بلدان العالم الإسلامي، متخذا من الإعلام وسيلة لتبليغ رسائله؛ خاصة أن العالم الغربي اليوم يقود الركب الأمي في مجال العلوم الحديثة والتكنولوجيا، كما تعتبر لغاته هي وسيلة هذه المعارف بشكل أساس، وهو ما سيساعد الحركة الاستشراقية ويوفر لها الكثير من الجهد، في عملها المتواصل الذي ينطلق من مركزية الغرب ويستهدف دول الأطراف.

2- نشأة الاستشراق :

من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق الرسمي، ويرجع بعض الباحثين هذه البداية المبكرة إلى الصراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الأندلس ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوربيين بتعاليم الإسلام وعاداته[16].

كما يرى بعض الباحثين أن بداية الاستشراق تعود إلى القرن العاشر الميلادي حينما أدرك الغرب تلك المعجزة الحضارية التي ساد بها العرب، فاندفعوا إليها ليتعلموها ويتسلحوا بها ويستفيدوا منها فأخذوا يدرسون لغتها وآدابها ويترجمون كتبها وينقلون علومها إلى بلادهم وكان أول من بدأ بذلك رجال الدين ثم تلاهم غيرهم من أبناء جلدتهم"[17].

وهو ما يراه أيضا إبراهيم عبد المجيد اللبان في كتابه (المستشرقون والإسلام) حيث يقول : "إن حركة الاستشراق بدأت في القرن العاشر الميلادي حيث ظهر الاهتمام بالعلوم العربية في هذا القرن بالذات ثم ازدهرت حركته في القرن الثاني عشر حين انتشرت تلك المراكز العلمية في العالم الإسلامي وبدأ الأوروبيون يتوافدون إليها ليتعلموا فيها [18].

بينما يرى الباحث الألماني رودي بارت Rudi Paret، أن بدايات الدراسات العربية في أوربا تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية[19].

وبغض النظر عن البدايات الفعلية للدراسات الاستشراقية، فمما لا خلاف فيه أن هذه الدراسات بلغت أوج ازدهارها بعد الإصلاح الذي جاء مع الألماني مارتن لوثر، يقول محمد البهي: " إن الاستشراق بدأ في بعض البلدان الأوروبية في القرن الثالث عشر الميلادي، (رغم) وجود محاولات فردية قبل ذلك ثم يؤكد أن المؤرخين يكادون يتفقون على أن هذا العلم قد انتشر بصورة جدية بعد الإصلاح الديني الذي قام به مارتن لوثر وغيره في أوروبا".[20]

وهناك من يعتبر أن بدايته هي بداية الاهتمام الغربي للشرق وعلومه، حيث كان ذلك بصدور قرار مجمع "افينا" الكنسي في عام 1312م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية. ويشير إدوار سعيد هنا إلى إن هذه البداية هي البداية الرسمية والمعلنة، وعلى هذا الأساس كان هناك استشراق غير رسمي[21].

2-1- دور الاستشراق في حفظ التراث الإسلامي:

الاستشراق كحركة علمية قديمة يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة، ولا تزال قائمة حتى اليوم. ميزتها أنها واسعة النطاق، متعددة الجوانب، متشابكة الأطراف. وقد تناول المستشرقون الدراسات الشرقية بصفة عامة، والدراسات العربية الإسلامية بصفة خاصة[22].

ولقد اكتشف المستشرقون التراث الإسلامي على مرحلتين، فكانت المرحلة الأولى في فترة القرون الوسطى، حين كانت أوروبا تريد اكتشافه وترجمته من أجل إثراء ثقافتها، وقد تمكنت من ذلك، واستفادت منه في حركة نهضتها أواخر القرن الخامس عشر. والمرحلة الثانية في فترة الاستعمار حين أعادوا استكشاف التراث الإسلامي لا من أجل تعديل ثقافي في حضارتهم بل من أجل وضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في هذه البلاد الإسلامية[23].

2-2- نماذج من جهود المستشرقين في حفظ كتب التراث:

فيعود لهم فضل التنبيه إلى كتب التراث "ومن الإنصاف أن نقر أن المستشرقين كان لهم فضل السبق في نشر تراثنا العربي، منذ القرن الماضي وأنهم أول من نبهنا إلى كتبنا ونوادر مخطوطاتنا، وأنهم وضعوا بين أيدينا نصوصا لولاهم لم نعرفها، نضرب على ذلك مثالا ففي سنة 1866م نشر وستنلفد معجم البلدات لياقوت، وفي سنة 1819م نشر فريتاغ المنتخب من تاريخ حلب لابن العديم..."[24].

وكما أنهم انتبهوا إلى كتب الحسبة وما تحويه من مادة انتربولوجية ثرية فقد انتبهوا كذلك إلى النوازل الفقهية ومادتها المتنوعة وجعلوا منها مصدر تاريخ المسلمين، يقول محمد المختار ولد السعد: "يعود الفضل في لفت الانتباه إلى الفتاوي والنوازل كمصادر للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي العربي بوجه عام والمغربي بوجه خاص في الفترة المعاصرة إلى مجموعة من علماء الإسلاميات الغربيين المهتمين بتراث المنطقة الثقافي والمشتغلين بتاريخها في أبعاده الاجتماعية والسياسية والفكرية. وسنقصر إهتمامنا في هذا المضمار على ما قام به الفرنسيون دون سواهم لاعتبارات تاريخية ولغوية"[25].

ثانيا: نظام الحسبة:

التعريف اللغوي:"الحسبة من الاحتساب أي من حسن التدبر في الأمر"[26].

والحسبة من البر وطلب المثوبة فهي تعني عند بعض اللغويين "طلب الأجر والثواب من الله بالقيام بأنواع الخير والبر ابتغاء مرضاة الله تعالى وهو ما يتفق -أيضا- مع المفهوم العادي من الأمور الدينية كأن يقول أحمدهم نويت الصوم احتسابا لوجه الله تعالى، أي تطوعا لوجه الله الكريم"[27].

والحسبة في المفهوم الشرعي: "الحسبة في المفهوم الشرعي هي أن يتطوع أحد المسلمين بالتدخل في حياة الآخرين إذا فعلوا جرما في حق الله تعالى أو في حق البشر..."[28].

أ- الحسبة:

الحسبة في الأصل فرض كفاية، تسقط عن الجماعة إذا قام بها آحاد الأفراد، وتسقط عنهم إذا تولاها ولي الأمر، وهنا فرق بين المحتسب المكلف من طرف ولي الأمر عن المحتسب المتطوع، فالأول أوسع صلاحيات و يأتمر بإمرة ولي الأمر، مع أن الحسبة تبقي "أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وهي مما طلبته الشريعة الإسلامية من المكلف وعلى هذا فإن المحتسب والمتطوع يستمد كلاهما الولاية على القيام بأمور الحسبة في الشرع الإسلامي، لأن المسلم مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقاعدة الشرعية هي: حيث ما يوجد التكليف الشرعي توجد معه الولاية الشرعية للمكلف حتى يقوم بما كلف به، إلا أنه في حالة قيام ولي الأمر بتنظيم أمور الحسبة في المجتمع حتى لا تكون الأمور فوضى بدون ضوابط فإن المعين للحسبة من قبل ولي الأمر وهو المحتسب يملك عند ذلك من الولاية والصلاحية في أمور الحسبة أكثر مما يملكه غيره من آحاد المسلمين، فهو إذن أكثر صلاحية من المتطوع لأنه معي لها وقائم مقام ولي الأمر في هذا العمل ولكن مع هذا يبقى المحتسب كالمتطوع يستمد الولاية الشرعية على قيامه بالحسبة من الشرع الإسلامي وكل الذي استزاده بالتعيين لها اتساع الصلاحية واستعمال قوة الدولة في عمله فولايته أكبر وصلاحيته أوسع من ولاية المتطوع مع فروق أخرى..."[29].

ب- الحسبة كوظيفة:

وقد ظهرت بدايات تشريع الحسبة كوظيفة دينية في العصر العباسي يأخذ صاحبها أجرا من الدولة ويكلف بالاحتساب في حدود ما كلف به، "ولأن الحسبة مصطلح جديد لم يرد في ألفاظ القرآن ولم يرد هذا اللفظ في الأحاديث المنسوبة للنبي إلا بمعنى التطوع وليس كوظيفة دينية أو رسمية فإن فقهاء العصر العباسي وجدوا في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أرضية تشريعية يمكن أن يقام عليها تشريع الحسبة لتكون وظيفة دينية رسمية تعمل في خدمة الدولة سياسيا مع أن مفهوم الحسبة التطوعي يناقض أن يعمل المحتسب بأجر"[30].

ثالثا: الاستشراق و العناية بكتاب نهاية الرتبة:

لا يخفى الدور الإيجابي الذي لعبه المستشرقون في حفظ بعض مخطوطات التراث العربي والإسلامي من ضياعها وتصنيفها وترتيبها[31]، وتحقيقها أحيانا أخر، ومن قد حفظ لنا المستشرقون العديد من تلك المخطوطات لا يسمح المقام لذكرها.

لكن تفرد الاستشراق بالاهتمام بكتب الحسبة يعود لما رأوا فيها من مادة أنتربولوجية تسهم في فهم جوانب كثيرة من حياة المجتمع يقول موسى لقبال وصافا عنايتهم بنظام الحسبة "...تفرد المستشرقين النابهين بالاهتمام به (أي نظام الحسبة)، ونشر آثاره، وتقصي دقائقه، حتى غدا تقريبا وقفا عليهم، ومعروفا بهم ورائد هؤلاء بدون شك هو (فالتر برناوي أمين المكتبة الإمبرطورية بفينا)"32.

و المستشرق (فالتر) (walter behrnauer) هو من اعتنى بالكتاب الذي هو محل الدراسة نهاية الرتبة في طلب الحسبة ونوه به واعتمد عليه في دراسته لنظام الشرط عند المسلمين (العرب والفرس والترك)، والتي نشرها في المجلة الآسيوية سنة 1860م، وهو أول من تفطن لهذا الكتاب وهو وقتها أمين المكتبة الإمبراطورية بمدينة فينا33 وأتبعه بترجمة تلخيصية لمضامين الكتاب.

كما كان للمستشرق الإنجليزي روبن ليفي (Reuben levi) حواش على كتاب ابن الأخوة المتوفى سنة (729هـ-1338م) المسمى "معالم القربة في أحكام الحسبة "، وهو كتاب في نفس الموضوع وسنشير إلى صلته بالكتاب المدروس.

أ- ترجمة المؤلف: عبد الرحمن بن نصر الشيرزي:

هو عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، وكنيته أبو النجيب، جلال الدين العدوي الشيزري: قاضي طبريا، شافعي المذهب، وتعود نسبته إلى قلعة شيزر(قرب المعرة) سكن حلب، له كتب منها: "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" ألفه للملك الناصر، صلاح الدين الأيوبي، و كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" وأيضا له كتاب "خلاصة الكلام في تأويل الأحلام"[34]. وبالتالي فقد ألف لصلاح الدين كتاب نهاية الرتبة و هو الكتاب المدروس والمنهج المسلوك في السياسة الشرعية.

لابد من الإشارة إلى أن المؤلف اضطربت بعض مخطوطات الكتاب في ذكر اسمه ولقبه في قرن كثرت فيه الألقاب على غير طريقة واحدة في اشتقاق ذلك اللقب، وقد أورد بروكلمان معظم الصيغ التي وردت في تلك المخطوطات، فمنها جلال الدين أبو النجيب أو الفضائل عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري التبريزي العدوي الشيرازي، وهناك مخطوطة برلين وردت فيها زين الدين وفي مخطوطة فينا وردت "تقي الدين" و في مخطوطة الخزانة التومرية وردت "جمال الدين" ومرد ذاك إلى الكتبة والناسخين لهذه المخطوطات لما ألحقوا به من ألقاب ليست مشهورة عنه، لكن اسم المؤلف يبقى فيها غالبا و كذلك مضمون الكتاب الذي تفرد في طرحه و عصره مما يجعله، لا يخفى على المحققين[35].

ب- خصائص كتاب نهاية الرتبة:

- تتميز كتب الحسبة بالكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، وبخصوص كتاب نهاية الرتبة (المدروس) فيقدم صورة عن الحياة الاجتماعية في بغداد في القرن الثاني عشر الميلادي، من عادات وتقاليد وأسرار المهن التجارية وطبيعة تنظيم الأسواق والحاجيات الاستهلاكية.
- يحسب للشيزري الأسبقية في التأليف عن نظام الحسبة وذلك لحسن مادته ودقة وصفه و عمق طرح، فلاشك أن الكتاب أخذ منه وقتا في متابعة أحوال المهن المختلفة عن قرب ومعرفة أسرار كل صنعة، فهو "أسبق المؤلفين في موضوع الحسبة من الناحية العلمية في الشرق الإسلامي إذ عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، ولم يتناول ذلك الموضوع قلبه إلا أفراد قلائل، مثل الماوردي (ت 450هـ - 1058م) في كتاب الأحكام السلطانية، والغزالي المتوفي سنة(505هـ- 1111م) في كتابه إحياء علوم الدين، وكلاهما تغلب على كتابته الصفة الفقهية البحتة"36.

- يعبر الكتاب أساسا لكل ما كتب بعد عن نظام الحسبة فهو "أساسا لما كتبه ابن الأخوة وابن بسام وغيرهما في الحسبة، أما ابن الأخوة المتوفى سنة 729هـ-1338م، فإنه ألف كتابه المسمى "معالم القربة في أحكام الحسبة " في سبعين بابا، وقد دلت المقارنة على وجود تشابه كبير بينه وبين كتاب الشيزري، مما بينه المستشرق الإنجليزي روبن ليفي (Reuben levi) في حواشيه لكتاب ابن الأخوة37.
- يوجد أيضا كتاب بنفس العنوان وبنفس المضمون " لابن بسام الذي عاش في مصر في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، فيدو كذلك أن معظمه منقول من كتاب الشيزري، إذ أنه فضلا عن اتفاقه مع كتاب الشيزري في العنوان، فإن مقدمتهما واحدة، وذلك باعتراف ابن بسام نفسه، بل يبدو أن ابن بسام أخذ تأليف الشيرزب فنسه لنفسه عنونا ومتنا، بعد أن أضاف إليه أبوابا متعددة، مما جعلها تبلغ أربعة عشر ومائة باب، على حين أن كتاب الشيرزي في أربعين بابا فقط"38.
- يتضح من سياق الكتاب كذلك أن المؤلف وضع كتابه بناء على طلب من صلاح الدين - من طريق غير مباشر- لمساعدة الحكومة الأيوبية في مراقبة أرباب الحرف39، وقد ألف له كتاب آخر في السياسة الشرعية أشرنا له سابقا.
- يتضمن تحقيق كتاب نهاية الرتبة على نصوص فرنسية توضح كيف انتقلت ظاهرة الحسبة من المسلمين إلى النصارى، وهو دليل على ما كان عليه المسلمون من رقي حضاري وازدهار فكري جعل الآخرين يأخذوا من نظمهم وقوانينهم40.
- انفردت نسخة (فينا) من المخطوط بإشهاد لأهل الذمة يوضح كيف كان يتم إنصافهم والعدل معهم وتأمينهم والسماح لهم بتطبيق شعارئهم في حدود جالياتهم على أن يدفعوا جزية مقابلة ذلك، كضريبة للدولة41.

ج- أبواب الكتاب:

الباب الأول فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها

الباب الثاني في النظر في الأسواق والطرقات

الباب الثالث في معرفة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم

الباب الرابع في معرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل

الباب الخامس في الحسبة على الحبوبيين والدقاقين

الباب السادس في الحسبة على الخبازين
الباب السابع في الفرانين
الباب الثامن في الحسبة على صناع الزلابية
الباب التاسع في الحسبة على الجزارين والقصابين
الباب العاشر في الحسبة على الشوايين
الباب الحادي عشر في الحسبة على الرواسيين
الباب الثاني عشر في الحسبة على قلائي السمك
الباب الثالث عشر في الحسبة على الطباخين
الباب الرابع عشر في الحسبة على الهرائسيين
الباب الخامس عشر في الحسبة على النقانقيين
الباب السادس عشر في الحسبة على الحلوانيين
الباب السابع عشر في الحسبة على الصيادلة
الباب الثامن عشر في الحسبة على العطارين
الباب التاسع عشر في الحسبة على الشرابين
الباب العشرون في الحسبة على السمانين
الباب الحادي والعشرون في الحسبة على البزازين
الباب الثاني والعشرون في الحسبة على الدلالين والمنادين
الباب الثالث والعشرون في الحسبة على الحاكة
الباب الرابع والعشرون في الحسبة على الخياطين
الباب الخامس والعشرون في الحسبة على القطانين
الباب السادس والعشرون في الحسبة على الكتانين
الباب السابع والعشرون في الحسبة على الحريريين
الباب الثامن والعشرون في الحسبة على الصباغين
الباب التاسع والعشرون الأساكفة
الباب الثلاثون في الحسبة على الصيارف
الباب الحادي والثلاثون في الحسبة على الصاغة

الباب الثاني والثلاثون في الحسبة على النحاسيين والحدادين
الباب الثالث والثلاثون في الحسبة على البياطرة
الباب الرابع والثلاثون في الحسبة على نخاسي العبيد والدواب
الباب الخامس والثلاثون في الحسبة على الحمامات وَقَوَمتها
الباب السادس والثلاثون في الحسبة على الفصادين والحجامين
الباب السابع والثلاثون في الحسبة على الأطباء والكحالين المجبّرين والجرائحيين
الباب الثامن والثلاثون في الحسبة على مؤدبي الصبيان
الباب التاسع والثلاثون في الحسبة على أهل الذمة
الباب الأربعون ويشتمل على جمل وتفاصيل في أمور الحسبة

الخاتمة:

ونختم بجملة من الاستنتاجات نجملها في ما يلي:

- أن الاستشراق اعتنى بكتب التراث الإسلامي وبخاصة كتب نظام الحسبة التي كانت تزخر بمادة أنتربولوجية متنوعة تعطي صورة عامة عن أحوال المجتمعات المسلمة.
- أن مؤلف كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة كان له السبق في الكتابة عن موضوع الحسبة لما تطرق له من أبواب مختلفة تجب فيها الحسبة، وقد نسجل على منواله من جاء بعه من المؤلفين في نفس المجال.
- أن كتاب نهاية الرتب كان مرجعا للعديد من الأبحاث الاستشراقية التي اهتمت بنظام الشرطة لدى المسلمين وكذلك قامت بنقل نظام الحسبة إلى الحضارة الغربية لما فيه من ميزات تعين على ضبط وتنظيم حياة الناس.

المراجع:

- خالد إبراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2010،
- نذير حمدان، المستشرقون سياسيون جامعيون مجمعيون، الناشر مكتة الصديق للنشر، الطائف السعودية، ط1، 1988
- المعجم الوسيط ج1، مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1960.
- الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، وترجمة د. مصطفى، ماهر – القاهرة 1967م
- معجم متن اللغة، الشيخ أحمد رضا،مكتبة الحياة، بيروت، ج3،ط1959.
- المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطلي، سلسلة تاريخ المصريين(15)، الهيئة المصرية العامة 1988.
- الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمد حمدي زقزوق.
- سعيد المرصفي، المستشرقون والسنة، سلسلة الدفاع عن السنة 10، مؤسسة الريان
- الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت
- تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية و العليا، أحمد حسن الزيات.
- حسن عبد الله الفكري محمد عبد الغني، أعلام العرب.
- المستشرقون والإسلام، إبراهيم عبد المجيد اللبان، مجمع البحوث الإسلامية أبريل 1970.
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف 1997
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، دار الفكر بيروت بدون تاريخ.
- الاستشراق إدوارد سعيد، ط2، ترجمة كمال أبوديب، دار الكتاب الإسلامي، 1984.
- معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، منشورات دار الكتب العلمية بيروت – لبنان
- علي حسني الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة، سلسلة تاريخ المصريين العدد 15، 1988.
- إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي، دار الإرشاد.ط1، 1979

- تحقيق متطلبات المخطوط، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي الجديد، ببيروت لبنان، ص:7.
- الفتاوي والتاريخ محمد المختار ولد السعد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة:2000.
- الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، أحمد صبحي منصور، مركز المحروسة، 1995.
- نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، مكتبة بشائر.

- خالد إبراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2010،
- الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، موسى لقبال، ط:1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.
- خير الدين الزركلي ،الأعلام الزركلي، دار العلم للملايين، ج:30
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

الهوامش

[1] : الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، أحمد صبحي منصور، ص:7، مركز المحروسة، 1995.

[2] : الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، أحمد صبحي منصور، ص:7، مركز المحروسة، 1995.

[3] : علي حسني الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص:7، الهيئة المصرية العامة، سلسلة تاريخ المصريين العدد 15، 1988

[4] : خالد ابراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام، ص: 9، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2010،

[5] : نذير حمدان، المستشرقون سياسيون جامعيون مجمعيون، ، ص: 79، الناشر مكتة الصديق للنشر، الطائف السعودية، ط1، 1988

[6] :المعجم الوسيط ج1 ص 482 مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1960.

[7] : السابق، ص:482

[8]: الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، وترجمة د. مصطفى، ص11 ماهر – القاهرة 1967م

[9] : معجم متن اللغة، الشيخ أحمد رضا،مكتبة الحياة، بيروت، ج3،ط1959، ص 309،.

[10] : المستشرقون والتاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطلي،ص:12 سلسلة تاريخ المصريين(15)، الهيئة المصرية العامة 1988.

[11] : الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمد حمدي زقزوق، ص:18، راجع كذلك: مفهوم الاستشراق لدى سعيد المرصفي، في كتابه المستشرقون والسنة، سلسلة الدفاع عن السنة 10، مؤسسة الريان

[12] :الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، عبد الرحمن عميرة، ص90، دار الجيل بيروت

[13]: تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية و العليا، أحمد حسن الزيات. ص 512.

[14]: حسن عبد الله الفكري محمد عبد الغني، ص 89 أعلام العرب.

[15] : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ص: 20، دار المعارف 1997

[16] : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ص: 21، دار المعارف 1997

[17]: المفصل في الأدب العربي، أحمد الاسكندراني وآخرون ، بتصرف يسير، 408/2.

[18]: المستشرقون والإسلام، إبراهيم عبد المجيد اللبان ص 11 مجمع البحوث الإسلامية أبريل 1970.

[19] :الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري،سابق ص: 19،

[20]:الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ص 532 دار الفكر بيروت بدون تاريخ.

[21] :الاستشراق الإدوارد سعيد، ص:80,

[22] : علي حسني الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، ص:7، الهيئة المصرية العامة، سلسلة تاريخ المصريين العدد 15، 1988.

[23] :إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي: ص:8-9

[24] :نحقيق متطلبات المخطوط، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب العربي الجديد، ببيروت لبنان، ص:7.

[25] : الفتاوي والتاريخ محمد المختار ولد السعد ص:12، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة:2000.

[26]:الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، أحمد صبحي منصور، ص:7، مركز المحروسة، 1995.

[27]:الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، ص:7.

[28] :الحسبة، دراسة أصولية تاريخية،ص:9.

[29]:نظام القضاء في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص:319-320، مؤسسة الرسالة، مكتبة بشائر.

[30] :الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، أحمد صبحي منصور، ص:11، مركز المحروسة، 1995.

[31] : خالد ابراهيم المحجوبي، الاستشراق والإسلام، ص: 9، أكاديمية الفكر الجماهيري، 2010،

[32] :الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، موسى لقبال،ص:4، ط:1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.

[33] :مقدمة الناشر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:(ز)، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

[34] : خير الدين الزركلي ،الأعلام الزركلي، دار العلم للملايين، ص:340،ج:30

[35] :راجع تقديم الناشر، نهاية الرتبة، الصفحة: ي.

[36] : مقدمة الناشر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:(ز-ح)، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

[37] : مقدمة الناشر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:(ز-ح)، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

[38] : مقدمة الناشر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:(ز-ح)، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

[39] :تقديم الناشر، نهاية الرتبة، الصفحة: هـ

[40] : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:125، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.

[41] : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عبد الرحمن بن نصر الشيزري،الصفحة:122-121.، الطبعة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1946.